

آل بربروس وآل القاضي بين التحالف والصراع خلال القرن 16م (مقاربة تاريخية أنثروبولوجية)

Barbaros family and Al-Qadi family between alliance and conflict during 16th century (Anthropological Historical approach)

سالم جوامع¹ / دكتورالي، أ.د. عبد الحق زريوح²

Salem Djouama/PhD student¹, Pr :Abdelhak Zerriouh²

¹ جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان، salem.djouama@univ-tlemcen.dz

² جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان، zerriouh2012@gmail.com

مخبر جمع وتوثيق الشعر الشعبي الجزائري من العهد العثماني حتى القرن العشرين

جامعة أبو بكر بلقايد-تلمسان

تاريخ القبول: 2020/03/18

تاريخ الارسال: 2020/02/12

ملخص:

تظهر بوضوح العلاقة بين التاريخ والأنثروبولوجيا بصورة مميزة انطلاقا من أن التاريخ من أهم العلوم الاجتماعية نظرا لكونه يساهم في مد علماء هذه العلوم بجذور الفكر والتحولات الإنسانية الاجتماعية والسياسية على مر العصور، فدراسة المجتمعات الإنسانية ككيانات اجتماعية سياسية وتاريخية لا يمكن إلا من خلال انفتاح الأنثروبولوجيين على تحليلات المؤرخين والتي تتناول مجموعة من القضايا المتعلقة بالمجتمعات الإنسانية ككل، ومنه اشتق فرع الأنثروبولوجيا التاريخية كفرع من فروع علم الأنثروبولوجيا. ومنه تعنى هذه الدراسة بالبحث في البنية الاجتماعية والسياسية لإمارة كوكو بزعامة أسرة ابن القاضي وعلاقتها مع الحكام العثمانيين بالجزائر من عائلة بربروس حصرا، أي العلاقة بين أمراء كوكو وبين حكومة الأتراك في الجزائر في فترات حكم آل بربروس (عروج، خير الدين وحسن باشا بن خير الدين). ومن ثم، سنعالج العلاقة بين الطرفين في فترات متقطعة من القرن 16م: فترة حكم عروج بربروس (1512-1518م) ثم فترة حكم خير الدين (1518-1534م)، ثم في عهد حسن بن خير الدين الذي حكم الجزائر ثلاث فترات مختلفة ما بين (1544-1567م).

¹ المؤلف المرسل: سالم جوامع salem.djouama@univ-tlemcen.dz

ونهدف من خلال هذا المقال لمعالجة مساهمة إمارة كوكو رفقة عائلة بربروس في تأسيس الحكم العثماني بالجزائر ودورها في قمع التمردات الداخلية، بالإضافة إلى فترات التوتر والصراع بين الطرفين، وكذلك التطرق إلى علاقات المصاهرة التي تمت بينهما خلال القرن 16م.

الكلمات المفتاحية: آل بربروس؛ آل القاضي؛ التحالف؛ الصراع؛ القرن 16م، تاريخية أنثروبولوجية

Abstract:

The relationship between history and anthropology is clearly shown in the light of the fact that history is one of the most important social sciences, as it contributes to providing scholars of these sciences with the roots of human thought and social and political transformation throughout the ages, the study of human societies as socio-political and historical entities is possible only through the openness of anthropologists to morgen's analyzes dealing with a set of issues related to human societies the branch of historical anthropology as a branch of anthropology.

This study is concerned with researching the social and political structure of the Emirate of Coco, led by Ibn al-Qadi family, and its relationship of the Ottoman rulers in Algeria exclusively from Barbaros family, the relationship between the Coco princes and the Turkish government in Algeria during the reigns of Barbaros family (Arouj, Khairreddine and Hassan Pasha ben Khairreddine). Thus, we will address the link between the two parties in intermittent periods of the 16th century: the reign of Arouj Barbaros (1512-1518), then the reign of Khairreddine (1518-1534), and later under Hassan Ben Khairreddine, who ruled Algeria in three different periods between (1544-1567).

In this article, we will talk about the contribution of the Emirate of Coco and Barbaros family to the establishment of Ottoman rule in Algeria and its role in suppressing internal rebellions, as well as periods of tension and conflict between the two parties, as well as the relations between them during the 16th century.

Key words : Barbaros family; Ibn al-Qadi family ;alliance; conflit; 16th century; Anthropological-historical

مقدمة:

يلتقي التاريخ والأنثروبولوجيا في الكثير من النقاط سواء من حيث المنهج أو من حيث الهدف، وإن عملية تجميع الحقائق التي يقوم بها الأنثروبولوجي تشبه كثيرا التي يقوم بها المؤرخ، كما أن علم الأنثروبولوجيا

قد انطلق رأسا من الدراسات التاريخية التي تناولت الشعوب وتنظيماتها. (أوراعي، الأنثروبولوجيا والتاريخ، 2012، ص218، 219)

وانطلاقا من أن التاريخ السياسي محور هام من محاور الأنثروبولوجيا السياسية و التي هي فرع آخر من فروع الأنثروبولوجيا تهتم بدراسة النظم السياسية عبر النظر إليها كجزء من أسس المجتمعات وتتبع تطورها ومختلف الأشكال التي اتخذتها عبر التاريخ أو خلال فترة زمنية معينة ومفتشة عن الخصائص المشتركة لكل الأنظمة السياسية المعروفة بتنوعها التاريخي والجغرافي (بالاندييه، الأنثروبولوجيا السياسية، 2007، ص15) فإننا سنقوم بدراسة إمارة كوكو ككيان سياسي اجتماعي خلال القرن 16م وعلاقتها بالحكام العثمانيين من عائلة بربروس خلال الفترة المذكورة.

ومنه فإن هذه الدراسة تعالج الإشكالية التالية: كيف نشأت إمارة كوكو ككيان اجتماعي سياسي خلال القرن 16م ؟ كيف كانت علاقة إمارة كوكو بحكام الجزائر من عائلة بربروس؟ وماهي أبرز الإنجازات التي قام بها الطرفان إبان تحالفهما خلال القرن 16م؟ ولماذا كانت العلاقة بين الطرفين تشهد حالات من العداوة والصراع، وكيف أثر ذلك على العلاقة بين الطرفين؟

ويتمثل الغرض من هذا البحث في الكشف عن علاقة حكام الجزائر من عائلة بربروس مع إمارة كوكو كنظام اجتماعي سياسي وتسليط الضوء على أهم المنجزات التي حققها الطرفان وكذا الوقوف على أسباب توتر العلاقة بينهما وعلى التداعيات السياسية الناتجة عن ذلك، على اعتبار أن الأنثروبولوجيا تساهم في فهم نشأة المجتمع و طبيعة تنظيماته ووظائفه (زلاقي، علم الاجتماع الديني، 2020، ص512)، وقد اعتمدنا من أجل الإجابة على إشكالية الدراسة المنهج الأنثروبولوجي الذي يقوم على وصف الواقع كما هو مستنتج الدلالات والبراهين من وقائع مشاهدة أو موثقة بغية تتبع الأحداث التاريخية ووصف العلاقة بين الطرفين بدقة، وفي المقابل فإن توظيف المنهج التاريخي في الدراسات الأنثروبولوجية لا يعد انحرافا عن المسار المعرفي للأنثروبولوجيا (أوراعي، 2012، ص220)، كما اعتمدنا المنهج التحليلي لتحليل الروايات التاريخية من وثائق أرشيفية ومصادر من أجل الخروج بقراءة تخدم الموضوع.

أولاً: نشأة إمارة كوكو كنظام اجتماعي وسياسي خلال القرن 16م:

نظرا لقلة المصادر التاريخية التي تصف لنا حال المغرب الأوسط نهاية القرن 15م ومطلع القرن 16م فقد تضاربت الروايات والدراسات حول نشأة مملكة كوكو التي ستلعب دورا هاما طيلة فترة الحكم العثماني بالجزائر وخاصة خلال المرحلة التأسيسية لهذا الحكم.

تحاول الدراسات التاريخية المعاصرة الكشف عن أصل عائلة ابن القاضي وكيف أسست إمارتها بالجزائر، إذ تتفق الدراسات على ان هذه القبيلة من أصل آل الغبريني أو قبيلة بني غبري جنوبي بجاية (Boulifa, 1925, p. 113), وهي بالتالي من سلالة أبي العباس الغبريني العالم البجائي المشهور صاحب كتاب عنوان الدراية, والذي كان قاضي بجاية في عصره, وعن أصل هذه الأسرة يقول الأستاذ بوليفة Boulifa.SA في كتابه جرجرة عبر التاريخ أن أبو العباس الغبريني المذكور كان قد قام بالوساطة لدى حاكم بجاية لحل نزاع بينه وبين حاكم تونس نظرا لمكانته الدينية والعلمية، غير أنه تم اغتياله من قبل حاكم بجاية بتهمة الخيانة والتواطؤ ففرت زوجته لاجئة الى البلاط الملكي في تونس وأنجبت هناك أحد أولاده. (بن الشيخ، مملكة كوكو، 2018، ص 48)

من أحفاد هذا الولد نشأ أحد أبناء هذه الأسرة - حسب بوليفة دائما- يدعى أحمد ابن القاضي (ولقبه هذا إنما استمده من مهنة جده الغبريني الذي كان يعمل قاضيا ببجاية قبل اغتياله) وقد عينه السلطان الحفصي حاكما على مدينة عنابة قبل أن يرسله في حدود سنة 1512م إلى بجاية لسماعدة الإخوة بربروس في تحريرها من الإسبان، و في أثناء توجهه إلى بجاية استقر بجبال البابور أين التفت حوله القبائل نظرا لكونه من عائلة معروفة وذات شأن وجعلته أميرا عليها (Boulifa, 1925, p. 96) بعد استقراره في جبل كوكو (قرية أورير) التابعة لعرش آيت غبري (آل الغبريني) (Genevois, 1974, p. 3)، و هاهو شارل فيرو Ch. Feraud يقول في كتابه تاريخ جيغلي أن أحمد ابن القاضي رغم كونه أحد المرابطين الذين لعبوا دورا كبيرا في هذه الفترة، إلا أنه لا أحد يقدم تفصيلا عن هذه الشخصية الدينية، لقد كان سي أحمد بن عمر ابن القاضي مرابطا صالحا له زاوية بقرية كوكو في جرجرة (فيرو، تاريخ جيغلي، 2010، ص 97). كما يجعل فيرو للعائلة نسبا شريف إذ يقول بأن أصل آل القاضي إنما هو من الأدراسة الاشراف حكام فاس وجددهم هو عمار بن إدريس الذي كان يحكم القبائل الصنهاجية منتصف القرن

الميلادي التاسع، وقد انسحب هذا الفرع بعد سقوط الأدارسة واستقروا في جبل كوكو في جرجرة وأسسوا زاوية دينية هناك. (فيرو، 2010، ص 97)

غير أن علي بن الشيخ الباحث في تاريخ مملكة كوكو يفند هذا الرأي ويعزو سبب ذلك إلى أنه في تلك الفترة كان كل من يريد أن يحظى بمكانة اجتماعية عالية أو أن تكون له وظائف عليا ينتسب إلى آل البيت و النسب الشريف. (بن الشيخ، 2018، ص 48).

إذن فإن أولاد القاضي ينتسبون إلى قبيلة بني غبري البربرية المستقرة بالقرب من مدينة بجاية، وقد اشتبهوا بتداولهم مهنة القضاء في المدينة نظرا لمكانتهم العلمية، وحسبما أورده شارل فيرو CH. Feraud اعتمادا على مخطوط إبراهيم بن علي المريني المعنون ب: "عنوان الأخبار فيما مر على بجاية" والمنشور في المجلة الافريقية La Revue Africaine فقد كان حاكم هذه القبيلة مطلع القرن 16م أبو محمد عبد الله بن أحمد ابن القاضي الغبريني، رجل مثقف ومتبحر في كل العلوم، كان يشغل قاضيا لدى السلطان عبد العزيز الحفصي حاكم بجاية (Feraud, 1968, p. 342)، وهو الذي توسط بين الإسبان وحاكم بجاية، حيث تفاوض باسم العباس أمير بجاية -الذي تولى الحكم بعد مقتل أبيه عبد العزيز- مع أنطونيو دي رافادينا Antonio de Rafadinal. (لزغم، البيوتات والأسر العلمية، 2014، ص 225)

وبما أن علماء الأنثروبولوجيا السياسية يستعينون بمعطيات التاريخ وملاحظات الرحالة وملاحظاتهم عن البلدان المختلفة (بالاندي، 2007، ص 16)، فإننا سنوظف ما أورده رحالة القرن 16م بخصوص نشأة هذه الإمارة ككيان سياسي اجتماعي، حيث فيما يتعلق بتاريخ قيام هذه الإمارة فهو غير محدد بدقة، فهذا حسن الوزان الذي زار المغرب الأوسط في الفترة ما بين 1515-1516م لم يتطرق في حديثه عن بجاية أو في وصفه لجبالها إلى وجود إمارة مستقلة تحمل هذا الاسم في هذه الفترة، باستثناء قوله أن جبال بجاية تسكنها قبائل تعيش بحرية خاصة منذ سقوط المدينة في أيدي المسيحيين. (الوزان، وصف أفريقيا، 1983، ص 51)

في حين نجد المؤرخ الإسباني مارمول كرنخال الذي أرخ للمغرب الأوسط خلال القرن 16م يشير إلى وجود إمارة مستقلة بالمنطقة، حيث قال عن جبال بجاية: "...شرق وجنوب شرق مدينة الجزائر سلسلة جبال يسكنها أقوام من البربر وزواوة لايفترون عن الحرب.. في هذه الجبال يوجد جبل يدعى كوكو نسبة إلى مدينة (قرية) واقعة فيه وهو جبل عال شديد الوعورة.. سكان هذا الحي فروع من نسب واحد.. و منذ

وقت قريب سمي أحدهم نفسه أمير كوكو وهو من بيت عريق..". (كربخال، أفريقيا، 1984، ج2، ص 373)

إذن فمن خلال كلام كربخال يتأكد لدينا وجود إمارة في جبل كوكو في هذه الفترة، غير أنه لم يوضح تحديدا زمن تأسيسها ولا تحت أي ظرف تأسست، في حين يذكر ن. روبن N. Roben في مقاله المنشور بالمجلة الأفريقية *La revue Africaine* تحت عنوان "التنظيم العسكري والإداري للأتراك في القبائل الكبرى" إن بلاد القبائل كانت تحت حكم أحمد ابن القاضي المستقر في كوكو وذلك في الوقت الذي وصل فيه خير الدين بربروس إلى الجزائر حوالي سنة 1512م و في موضع آخر يقول بأن هذه الأسرة الحاكمة كانت مستقرة في قرية كوكو المستقلة في السنة التي احتل فيها الإسبان بجاية أي سنة 1509م. (Robin, 1873, pp. 132-133)

تختلف الروايات إذن في الحديث عن زمانية تأسيس إمارة كوكو، بل ومنها من يتجنب ذلك، وذلك يعود بالأساس إلى أن قيام هذه الإمارة في شكل تشكّل أو كيان سياسي محلي لم يحدث في سنة معينة، إذ أن قيام هذه الإمارة كان بالأساس عبارة عن نفوذ أسرة والتفاف قبيلة حول هذه الأسرة تطور مع مرور الوقت خاصة في ظل الانحلال الداخلي و الأخطار الخارجية المتمثلة في الغزو الإسباني، مما زاد من شعور العصبية و الإلتحام لدى قبائل المنطقة وإدراك الحاجة إلى كيان/تجمع/ سياسي وعسكري لحماية الذات بالنسبة لسكان هذه المنطقة، ثم تحول هذا النفوذ والإلتفاف إلى كيان سياسي محلي في شكل مشيخة أو إمارة، ومع مرور الوقت ومن خلال مشاركة هذه القبيلة في الأحداث التي عرفت الجزائر في الربع الأول من القرن 16م تطور التشكل السياسي لهذه القبيلة المستقرة في كوكو تحت حكم أحمد ابن القاضي، حيث أثبتت الدراسات الأنثروبولوجية أن رؤساء القبائل لهم سلطة روحية بجانب سلطتهم السياسية بما حقق وحدة الجماعات وترابطها (زلافي، 2020، ص514) و ظهرت على شكل إمارة تعرف بإمارة كوكو أو مملكة كوكو، والتي ستلعب دورا كبيرا في أحداث هذه الفترة وخاصة في علاقاتها بالحكم العثماني في الجزائر خلال النصف الأول من القرن 16م.

ثانيا: فترة التحالف الأولى بين إمارة كوكو وآل بربروس 1514-1520م:

يقول بالاندييه في كتابه الأنثروبولوجيا السياسية أن هذه الأخيرة تتناول علاقة السلطة بالبنى الأساسية وب نماذج التدرج الاجتماعي، كما تبين كذلك أن المجتمعات الإنسانية تنتج جميعا شأنا سياسيا وأنها معرضة

جميعا لتقلبات التاريخ (بالاندييه، 2007، ص14)، وبما أن الأنثروبولوجيا الإجتماعية تقر بأن علم الاجتماع الديني ينظر إلى الظواهر الدينية-بما فيها نظام العشيرة-وتأثيرها في النظم الإجتماعية وعلاقتها بالأوضاع السياسية (زلاقي، 2020، ص515) فإننا سنبحث في هذا المحور من الدراسة عن فاتحة العلاقة بين إمارة كوكو كتنظيم اجتماعي، سياسي وديني وبين آل بربروس أصحاب السلطة في الجزائر مطلع القرن 16م.

1- فاتحة العلاقة بين آل بربروس و آل القاضي:

تذكر المصادر التاريخية أن فاتحة العلاقة بين الإخوة بربروس وآل القاضي هي تلك الرسالة التي بعث بها أميرهم أحمد ابن القاضي إلى عروج بربروس حوالي سنة 1512م لإعانة الجزائريين على تحرير بلادهم من النصارى الإسبان، انطلاقا من أن زاوية آل القاضي التي تأسست حولها الإمارة كباقي الزوايا والرباطات تقوم إلى جانب وظيفتها الدينية بوظائف سياسية وعسكرية كما أنها متعلقة بواجب الجهاد (نقروش، في أصول النظرة المرابطية، 2018، ص211، 206)، وقد أورد صاحب نزهة الحادي نصاً في هذا الصدد جاء فيه: "إن أحمد ابن القاضي أمير كوكو لما رأى من قوة النصارى و ضعف المسلمين كاتب التّرك بحسن نيته أن يرفعوا من عزّة الإسلام ما انخفض وقال: إن بلادنا بقيت لك أو لأخيك أو للذئب، فأقبل الترك نحوه مسرعين و جعل هو يحرض الناس على اتّباعهم و الانخراط في سلوكهم و السمع و الطاعة لأميرهم عروج..". (اليفريني، نزهة الحادي، 1888، ص17)، كما نستطيع من خلال هذا النص أن نبرز قدرة النخبة الدينية على فرض سلطتها واستغلال الطيقات الاجتماعية للأغراض السياسية (نقروش، 2018، ص202)، هذا وقد أورد خير الدين بربروس في مذكراته رسالة لوفد من بجاية جاء فيها: "إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال، لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أبنائنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بين أيديك، جعلكم الله سببا لخلاصنا.. فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجّلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار" (خير الدين، 2013، ص85). ورغم أن خير الدين لم يذكر اسم رئيس الوفد، فإنّه ليس من المستبعد أن يكون ابن القاضي نظرا للتشابه الكبير بين الرسالة التي جاءت في المذكرات وبين التي ذكرها اليفريني.

ومنه، فإن علاقة الإخوة بربروس بابن القاضي علاقة مبكرة نشأت منذ ظهورهم في الجزائر، وحسبما عرضناه من روايات تاريخية معاصرة للأحداث، فإن العلاقة بين الطرفين كانت علاقة تحالف وتعاون ضد الوجود الصليبي المتمثل في الإحتلال الإسباني للمدن والثغور الساحلية للجزائر.

2- بداية التحالف:

لَبَّى الإخوة بربروس نداء أهالي بجاية ورسالة ابن القاضي وتوجهوا سنة 1512م رفقه قوات الأخير لتحرير بجاية من الإسبان وقد بلغ عدد الرجال من زواوة (قوات ابن القاضي) والقبائل المجاورة -الذين شكلوا أول حلف بين أسرتي بربروس وابن القاضي- نحو عشرين ألف رجل. وبعد حصار دام قرابة شهر، نفذ البارود وقَرَّرَ عروج أن يفك الحصار على بجاية التي قام باستئناف حملة أخرى ضدها سنة 1514م غير أنها كانت فاشلة أيضا. وعلى الرغم من فشل بربروس من تحرير المدينة، فإن رجال القبائل قد تمكنوا من الاطلاع على القيمة الحربية للجند والبحارة الأتراك في سبيل تحرير مدينتهم (إلتر، 1989، ص48).

استمر التحالف بين بربروس وآل القاضي بعد معركة بجاية؛ ففي سنة 1516م، استغاث أهالي مدينة الجزائر بالإخوة بربروس لتحرير مدينتهم من الإسبان مستغلين الفراغ السياسي الذي تمرّ به إسبانيا بعد وفاة الملك فرناندو (Haedo, 1881,p16). وقد جاء في مذكرات خير الدين: "...عندما كنت مع أخي في مدينة جيجل، وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، كان أهمها وفد مدينة الجزائر.. كان أهالي الجزائر يشكون ظلم الإسبان ويرجون تدخلنا لإنقاذهم..". (خير الدين، 2013، ص92)، كما جاء في كتاب الزهرة النائرة لابن رقية التلمساني أن الإخوة بربروس لما كانوا مستقرين بجيجل بعث إلهيم أهل الجزائر يشكون من النصارى قائلين لهم: "سمعنا بكم أنس تحبون الجهاد وأخذتم بجاية وجيجلة من النصارى ونصرتم الدين، فهنيئا لكم أيها المجاهدون، لا بد أن تقدموا إلينا وتخلصونا من هؤلاء الملاحين الكفرة، لأننا في محنة عظيمة وذلة شديدة..". (ابن رقية، 2017، ص85)

ونظرا للتحالف الوثيق بين آل بربروس وآل القاضي، وبما أن أصل التعاون بينهما هو محاربة الإسبان، فقد أمدَّ أمير كوكو القائد التركي بخمسة آلاف من رجاله، كما تذكر بعض الدراسات الأجنبية (De Tassy, 1724,p10)، في حين نجد في المذكرات أنهم كانوا حوالي ثلاثة آلاف مجاهد (خير الدين، 2013). وعندما ضاعف الصديقان تحصين بجاية، اتجها إلى الجزائر حيث سارت قوات ابن القاضي برّاً، فيما خرج عروج من جيجل بعمارة بحرية تحمل خمسمائة تركي، وقد استقبل عروج ساعة وصوله استقبال الفاتحين في

مدينة الجزائر هو ومن معه من البحارة ورجال ابن القاضي وكان ذلك سنة 1516م (Mercier, 1886,p16).

يذكر خير الدين في مذكراته أن أمير كوكو أحمد ابن القاضي كان "أحد عظماء العرب في الجزائر وقد كان يكنّى لي قدراً من الصداقة والمودة" (خير الدين، 2013، ص138). وهذا ما يدل على قوة العلاقة والاحترام المتبادل بين الطرفين، هذه العلاقة التي تقول عنها الأستاذة جميلة معاشي: إنها كللت بالمصاهرة بين الأسرتين؛ إذ إنّ خير الدين تزوّج من إحدى بنات ابن القاضي وأنجبت له ولده حسن بن خير الدين (معاشي، 2015، ص206). ورغم أن الباحثة لم تقدم دليلاً تاريخياً على هذا الرأي، فإن هناك رواية أخرى قد تدعمها نسبياً، حيث جاء في مذكرات خير الدين أنّه كان متزوجاً وأباً لأسرة حوالي سنة 1527م حين أرسل طلب عائلته من جيجل وإحضارها إلى مدينة الجزائر (خير الدين، 2013، ص168). ورغم أننا لا نعلم بالتحديد من هي زوجة خير الدين بربروس فإن معظم الروايات التاريخية تُجمع على أنّها واحدة من بنات الأهالي.

في سنة 1518م وبعد مقتل عروج في تلمسان وإسحاق في قلعة بني راشد (ابن رقية، 2017، ص97)، بقي خير الدين في مدينة الجزائر يعيش مرارة فقدان إخوته، ويفكر في أحسن طريقة للحفاظ على دولته الفتية وإنقاذها من الزوال، غير أن الموقف الصعب الذي هو فيه والذي يقول عنه دي غرامون De Grammont: "لم يكن هناك أبداً إنسان في موضع أكثر صعوبة من وضع خير الدين بعد هذا الانكسار وموت عزّوج رفقة عدد كبير من خيرة المقاتلين" (DeGrammont, 1887,p29)، جعله يفكر في ترك الجزائر والعودة إلى إسطنبول لمواصلة سيرته البحرية في خدمة الأسطول العثماني.

على إثر ذلك، جمع خير الدين أعيان مدينة الجزائر وقال لهم: "إني عزمت على السفر إلى حضرة السلطان، وقد أقمت الآن على بلادكم بما أخلفه عنكم من العسكر المجاهدين، وقد وصل إليكم من أهل الأندلس عدد كثير و عندهم من السلاح والعدّة ما تقومون به بأمر الجهاد .." غير أن أعيان المدينة الذين رأوا قدرة خير الدين على مواجهة الاعتداءات الإسبانية ودحر الفتن الداخلية، طلبوا منه البقاء وألحوا عليه قائلين حسبما جاء به صاحب الغزوات: "أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذلك، إن الله قد نصرنا بك على العدو .. أنت بيننا وبينهم سدّ لا يخلصون إلينا ما دمت في هذه البلاد، وإن الله سائلك عنّا يوم القيامة .. أيها الأمير يتعيّن عليك البقاء في هذه المدينة لأجل حراستها و

الذّب عن ضعفاء أهلها، ولا رخصة لك في الذهاب عنهم وتركهم عرضة للعدو الكافر .. "(مجهول، 1934، ص41).

3- أحمد ابن القاضي سفيراً لخير الدين لدى السلطان العثماني:

قرر خير الدين، بعد أن طلب الجزائريون بقاءه، أن يطلب حماية الدولة العثمانية التي ستضمن له مزيداً من الهيبة والإعانة العسكرية والمالية، فطلب من أعيان الجزائر الانضمام للدولة العثمانية قائلاً لهم: "...وقد ظهر لي من الرأي، أن نعتد في حماية هذه المدينة على الله سبحانه وتعالى ونصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم مولانا سليم فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلات الجهاد.. ولا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة له وضرب السكة عليه .. "(خير الدين، 2013، ص122).

إختار خير الدين بربروس وفداً من أعيان مدينة الجزائر وعلمائها كان على رأسه الشيخ أحمد بن القاضي الذي اختاره خير الدين مبعوثاً وحاملاً رسالة أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني كما ورد في ذيل الرسالة التي نشرها الأستاذ التميمي في المجلة التاريخية المغربية (التميمي، 1976، ص116)، وقد رافق أحمد ابن القاضي في هذه المهمة حاجي حسين ممثلاً عن خير الدين، وربما مترجماً وشارحاً للسلطان الوضع العام في الجزائر.

إستجاب السلطان سليم الأول لمطلبهم وقبل بيعة أهل الجزائر، حيث سلم فرماناً لحاجي حسين ورد فيه أمر تعيين خير الدين بايلر باياً على الجزائر و منحه الخلعة السلطانية، وراية الإمارة وأذن بضرب السكة باسمه، وأن تصرف الخطبة إليه كإجراء رسمي لإعلان التبعية للدولة العثمانية (التر، 1989، ص72).

ومن هنا، تتضح جلياً المكانة المرموقة التي كان يحظى بها أحمد ابن القاضي لدى خير الدين بربروس، وكذا طبيعة العلاقة المتينة والثقة المتبادلة بينهما؛ فابن القاضي هو أول من استنجد بالإخوة بربروس، وشكّل بمعية رجاله ورجال بربروس تحالفاً قوياً وقف في وجه الإسبان، وحزّر مدناً عدّة مثل تنس وشرشال، وضم أخرى مثل البليدة ومليانة والمدينة (De Tassy, 1724,p33). ثم تطورت هذه العلاقة بالمصاهرة بين الأُسرتين لتصل الى درجة أن يصير ابن القاضي سفيراً ومبعوثاً لخير الدين لدى السلطان العثماني بصفته كبير وممثل أعيان الجزائر، أو كما وصفه خير الدين "أحد عظماء العرب في الجزائر"، كما أن وصف خير الدين غير مبالغ فيه على اعتبار أن المرابطة- وابن القاضي عالم دين ومرابط- هي مجموعة المواقف

والسلوكات الاجتماعية التي يتسم بها أناس مميزون بخصوصيات الورع والنفوذ الروحي (نقروش، 2018، ص211).

ثالثاً: من التحالف إلى الصراع 1520-1527م:

إن العلاقة بين الطرفين ما لبثت أن تحولت من التحالف والصداقة إلى الصراع والعداء، فثرى تحت أي ظرف ولأي سبب حدث هذا التغير في العلاقة بين الطرفين؟

1- دواعي اضطراب العلاقة بين آل بربروس وآل القاضي:

تذكر الروايات التاريخية أن سبب ظهور الصراع بين بربروس وابن القاضي هو مراسلة السلطان الحفصي لأمير كوكو وسعيه إلى التآمر معه ضد الأتراك وطردهم من الجزائر. غير أن صاحب الغزوات وكذا خير الدين في مذكراته - وإن كانا يؤكدان هذه المراسلة-، يؤكدان أن ابن القاضي لم يستجب لسلطان تونس، ورفض عداء بربروس؛ فقد جاء في المذكرات أن: "السلطان الحفصي حاول تحريضه (أي ابن القاضي) علي، إلا أنه لم يوافق ودعاه إلى لزوم الطاعة للأتراك والتبعية لهم..". (خيرالدين، المذكرات، 2013، ص138).

فكيف ومتى إذاً، تغير موقف ابن القاضي من خير الدين وقرر التمرد عليه؟

ليس هناك سبب واحد تتفق حوله الروايات التاريخية بخصوص ظهور الصراع بين بربروس وابن القاضي، بل إن الكثير من المراجع تخوض في الحديث عن هذا الصراع دونما بحث في أصوله، إذا استثنينا الأحكام العامة غير المبنية على أدلة مثبتة والتي تعزو سبب ذلك إلى سعي بربروس للقضاء على منافسيه في الحكم بعد انضمامه للحكم العثماني وتقوية نفوذه بالجند والعتاد السلطاني.

وفي المقابل، هناك من يعزو سبب هذا الصراع إلى سعي ابن القاضي للانفصال وإعلان نفسه حاكماً على الجزائر بعد مقتل عروج بربروس؛ إذ إن ابن القاضي استغل الظرف الصعب لأخيه خير الدين -والذي لم يكن ابن القاضي ملزماً بالولاء له- وأعلن تمّده وانفصاله. وهذه شوفالييه كورين Chevallier Corinne تضع احتمالات عدة للقطيعة التي حدثت بين الطرفين؛ إذ تتساءل عن سبب تخلي ابن القاضي عن بربروس: هل بسبب اتهامه له بخيانة أخيه في تلمسان؟ أم بسبب تأمر السلاطين الحفصيين الذين كانت تخيفهم قوة الأتراك في المنطقة؟ أم أن ابن القاضي لم يغفر لآل بربروس قتل سالم التومي الذي كان أحد أقربائه؟ (شوفالييه، 2007، ص37).

إذا كان احتمالاً شوفالييه الأولان قريبين إلى الواقع، فإنّ احتمالها الأخير ضعيف جداً، إذ إنّ لا توجد صلة قرابة بين ابن القاضي وسالم التّومي. ويبدو أنّ شوفالييه قد أخذت هذه الرواية من كاريخال الذي لانعلم على أي أساس وضعها هو الآخر.

يذكر الأستاذ بوليفة Boulifa في كتابه جرجرة عبر التاريخ أنّ سبب تغيّر العلاقة بين خير الدين وابن القاضي هو اتهام خير الدين لأمير كوكو بالتهاون في دعم أخيه عروج، وخيانتته له خلال حملته على تلمسان (Boulifa, 1924, p124)، والتي قتل فيها سنة 1518م. وإذا كان صالح عباد في كتابه الجزائر في العهد التركي يعتبر هذا الرأي الأقرب إلى الحقيقة (عباد، 2012، ص51) - خاصة أنّ القطيعة حدثت بين الطرفين حوالي 1519م و1520م أي بعد مقتل عروج فعلاً -، فإننا نرى فيه مخالفة واضحة وتناقضا مع الأحداث التاريخية؛ إذ إنّ خير الدين بربروس قد أرسل سنة 1519م - بعد مقتل عروج - ابن القاضي إلى السلطان العثماني حاملاً معه رسالة أهالي الجزائر وبيعتهم. وهذا ما يؤكد أنّ العلاقة والثقة بين الطرفين كانت في أوجها ولم تتحوّل بعد إلى أيّ صراع أوعداء.

كان رأي بوليفة Boulifa الذي تبناه الكثير من المؤرخين صائباً ومنطقياً جداً لو لم ينشر الأستاذ عبد الجليل التميمي رسالة أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني والتي ورد في فيها اسم أحمد ابن القاضي مثلاً عن أهالي الجزائر وأعيانها والتي ما تزال محفوظة في أرشيف طوب قايي بإسطنبول. أما بعد نشر هذه الوثيقة، فيصعب التصديق بهذا الرأي. وللوصول إلى حل لهذه الإشكالية وهذا الخطأ التاريخي الذي مازال يتبناه الكثير من الباحثين، هو ضرورة الوقوف على شخصية ابن القاضي ودراسة أسرة آل القاضي بالقدر الذي يزيل اللبس عن هذه الأسرة التي أدّت دوراً بارزاً في فترة تأسيس الحكم العثماني في الجزائر.

تتفق معظم الروايات على أنّ أحمد ابن القاضي الذي تمرد على خير الدين بربروس هو الشخص الذي استغاث بالإخوة بربروس واستدعاهم إلى الجزائر. وهو نفسه الذي تحالف مع عروج وأمدّه بالرجال في حصار بجاية ودخل معه مدينة الجزائر عام 1516م. غير أنّ خير الدين بربروس يذكر في مذكراته بأن ابن القاضي الذي تحالف مع الحفصيين وأعلن التمرد والعداء للأتراك هو ابن القاضي "الولد" وليس "الأب"؛ إذ إنّ الشيخ أحمد ابن القاضي قد توفي وتولّى الإمارة ولده (الذي يحمل اسم العائلة نفسه) من بعده؛ إذ جاء في المذكرات: "...الآن توفي هذا الرجل العاقل، وحلّ محله ولد طائش يدعى ابن القاضي أيضاً، فكان

أول ما فعله أن اتّصل بسلطان تونس ليكونا يداً واحدة ضدّي.. " (خير الدين، المذكرات، 2013، ص138).

من هذه الرواية، نستخلص أن الظرف الذي أدّى إلى انقلاب العلاقة بين آل بربروس وآل القاضي من التحالف إلى العداء، ومن الولاء إلى التمرد هو تغير القيادة في أسرة آل القاضي بوفاة الشيخ العلامة أبي العباس أحمد، وتوليّ ابنه من بعده إمارة كوكو. هذا الإبن الذي لم يكن محباً للأتراك مثل أبيه، بل كان يمقتهم بشدّة حسبما جاء في المذكرات أيضاً (خير الدين، 2013، ص138). لكن هذا الطرح غائب لدى جميع الباحثين لهذه الفترة؛ إذ لم تفرّق جميع الدراسات والأبحاث - خاصة التي لم تعتمد على مذكرات خير الدين بربروس - بين ابن القاضي "الحليف" وابن القاضي "المتنرد"، ما عدا الأستاذ محمد دراج والأستاذ علي بن الشيخ اللذان فرقا بين الشخصيتين انطلاقاً ما أورده خير الدين في مذكراته (دراج، 2015، ص275). ومنه، فإنّ المصدر الوحيد الذي يقدم لنا هذا الطرح هو مذكرات خير الدين بربروس، في حين تتفق كلّ الروايات الأخرى على أن ابن القاضي الحليف هو نفسه المتنرد .

يمكننا أن نطرح تساؤلاً هنا وهو أن خير الدين بربروس ربما أخطأ في التفريق بين الشخصيتين، وأن ابن القاضي شخص واحد على اعتبار أن المذكرات يمكن أن تحتوي أخطاء تاريخية وخطأ في الشخصيات والأحداث.

لكن كيف لخير الدين بربروس أن يخلط بين رجلين يعرفهما شخصياً؛ فابن القاضي -الأب- هو الذي أرسله شخصياً، وبعث معه رسالة أهالي الجزائر، وهو نفسه الذي قابل السلطان العثماني وعاد إلى مدينة الجزائر حاملاً معه فرمان تولية خير الدين وتعيينه بايلربايا على الجزائر. أما ابن القاضي -الإبن- فيعرفه كذلك شخصياً؛ إذ إنّه واجهه في معركة دامت ثلاث ساعات ونصفاً، خسر فيها الأتراك سبعمائة رجل منهم. كما أنه كان لخير الدين "جواسيس في مجلس ابن القاضي (الإبن) و كل ما يقال أو يراد فعله يصلني أولاً بأول.. " (خير الدين، المذكرات، 2013، ص143)، كما أن رأس ابن القاضي "المتنرد" قد قطع وأرسل إلى خير الدين بعد مقتله سنة 1527 م، كما سنذكر لاحقاً. ومنه، فانطلاقاً من كلام خير الدين فهو يعرف الرجلين حق المعرفة ولا يمكن أن يخلط بينهما أبداً.

غير أن مصادر أخرى كاليفريني وابن عسكر اللذين يعتبران مصدرين أوليين، يؤكدان أن ابن القاضي شخص واحد وهو الذي قتله بربروس بعد تمرده؛ إذ جاء عند ابن عسكر في ترجمته لابن القاضي: "...وهو

كان السبب في دخول التركماني إلى مدينة الجزائر واستيلائهم عليها وعلى المغرب الأوسط إلى الآن ... وبعد ذلك، تنكروا له شأن رئاسة المتغلبين وقتلوه شهيدا رحمه الله في العشرة الثالثة والله أعلم" (الشفشاوي، 1977، ص126). أما اليفريني فيقول: ".. وجعل هو يحضُّ الناس على اتباعهم والانخراط في سلوكهم والطاعة لأمرهم عروج التركماني ... ثم أنهم مكروا بالشيخ، وغدروا به خوفاً على رياستهم فقتل رحمه الله شهيدا بعد 930 هـ..". (اليفريني، 1888، ص17).

تبقى مذكرات خير الدين ببروس المصدر الوحيد الذي يجعل من ابن القاضي شخصيتين مختلفتين (ابن القاضي الأب وابن القاضي الابن). في حين، تتفق جميع الروايات الأخرى على أن ابن القاضي شخص واحد هو الحليف وهو المتمرد وهو المقتول على يد قوات خير الدين عام 1527م. لكن تضارب الروايات واختلافها حول سبب تغير وتقلب العلاقة بين الأسرتين، يجعلنا نتبني ما ورد في المذكرات؛ إذ إن أقرب الآراء حول تغير العلاقة بين الطرفين إلى الحقيقة، كان ما جاء به الأستاذ بوليفة Boulifa، وهو اتهم خير الدين لابن القاضي بخيانة أخيه عروج مما أدى إلى مقتله. غير أن الوثيقة التي نشرها عبد الجليل التميمي - وهي رسالة أهالي الجزائر للسلطان العثماني والتي حملها ابن القاضي بنفسه واسمه وارد فيها والتي كانت بعد مقتل عروج- تبطل رأي بوليفة الذي هو الأرجح بين الآراء الأخرى. ومن ثم، لا يمكن تبني سبب آخر لانقلاب العلاقة بين ببروس وأمير كوكو إلا السبب الذي ورد في المذكرات وهو تغير السلطة في أسرة آل القاضي وتولي حكم الأسرة من قبل شخصية أخرى لها خططها ولها أطماعها الخاصة، كما أن تغير نظام الحكم قد يعني بالضرورة إعادة النظر في العلاقات التي كان يقيمها النظام السابق.

2- الصراع المسلح بين آل ببروس وإمارة كوكو:

تجمع المصادر إذن على تقلب العلاقة بين آل ببروس وآل القاضي منذ سنة 1520 م وتحولها إلى علاقة صراع وعداء، فابن القاضي الذي أعلن تمرده على خير الدين راح يرسل السلطان الحفصي في تونس من أجل طرد الأتراك من الجزائر و قد كان مضمون الرسالة التي وجهها ابن القاضي للسلطان الحفصي كما وردت في المذكرات على النحو التالي: "لنكن أنا وإياك يدا واحدة لاستئصال شأفة الأتراك ونطرد خير الدين من الجزائر..". (خير الدين، 2013، ص138) في الوقت الذي تتحدث فيه بعض الدراسات عن أن السلطان الحفصي هو أول من راسل ابن القاضي وعرض عليه التحالف ضد الأتراك في الجزائر. (عباد، 2012، ص50)

لم يرض خير الدين بربروس بهذا التمرد وخرج رفقة حليفه الجديد عبد العزيز أمير قلعة بني العباس قاصداً بلاد زواوة حيث واجهت قواته رجال إمارة كوكو واضطرتها للانسحاب حتى القلعة وعناية، حسبما أجمعت عليه الدراسات التاريخية للصراع بين آل القاضي وحكام الجزائر العثمانية (Mercier, Histoire de Constantine, 1903,p189) ، وليس من المستبعد أن أمير كوكو راسل السلطان الحفصي في الرسالة التي ذكرناها آنفاً في الوقت الذي كان لاجئاً فيه في القلعة أو عناية المتأخمين للبلاد التونسية.

كانت العلاقات بين بربروس و السلطان تونس قد بدأت تتدهور منذ حصار بجاية، ثم زادت بعد قبول الدولة العثمانية بيعه أهالي الجزائر حيث رأى السلطان الحفصي أن التوسع العثماني في بلاد المغرب يشكل خطراً كبيراً على مملكته. ومنه، فقد استجاب إلى طلب ابن القاضي وقبل التحالف معه في مواجهة خير الدين بربروس (المسعودي، 2012، ص203).

في سنة 1520م، عاد ابن القاضي بدعم حفصي وجمع قواته من رجال زواوة وبلاد القبائل، واتجه غرباً لملاقاة القوات العثمانية. والتقى الطرفان قرب وادي يسر في منطقة فليسة أم الليل، وانتهت المعركة بانتصار ابن القاضي وتقهقر قوات الإيالة (المدني، د.ت، ص213). غير أن هناك رواية أخرى وردت في مذكرات خير الدين وهي أن الأخير خرج لقتال سلطان تونس بعدما كشف نيته في محاربة الأتراك بالجزائر، وانتهت المعركة بانتصار القوات العثمانية على نظيرتها الحفصية. غير أنه في طريق العودة، نصب له ابن القاضي كميناً في منطقة وعرة-وهو أعلم بتضاريس بلاده- وانقضت قواته على الأتراك الذين قتل منهم سبعمائة رجل (خير الدين، 2013، ص147). أما المؤرخ الفرنسي دوغرامون De Grammont فيقول: إن ابن القاضي ورجاله انقلبوا على خير الدين بعدما تظاهروا بتحالفهم معه ضد السلطان الحفصي (DeGrammont, 1887,p33) ، على الرغم من أن بطلان هذه الرواية واضح جداً، حيث إنه في هذا الوقت كان ابن القاضي قد أعلن عداؤه جهاراً لخير الدين بربروس. فكيف يعتمد خير الدين على رجاله في قتال الحفصيين؟ كما أن الأخير لم يشر في مذكراته أبداً لهذه الحادثة بل تحدّث مباشرة عن الكمين الذي نصبته له قوات ابن القاضي. واضطّر خير الدين بعد هذه الهزيمة للانسحاب إلى مدينة جيجل.

دائماً ما نجد في مذكرات خير الدين بربروس ما يخالف الروايات الأخرى ونحن نتعمد الرجوع إليها في كل مرة إذ إنّها المصدر الأول والموثوق في دراسة كل الأحداث التي عايشها أول بايلربايات الجزائر؛ إذ حسبما جاء في مذكراته ورغم اعترافه بالهزيمة أمام قوات ابن القاضي، إلا أنه يذكر بأنه عاد إلى مدينة

الجزائر ثم تركها بعد فترة بمحض إرادته لابن القاضي، وغادر إلى جيجل بعدما سلّم مفاتيح المدينة إلى رسول ابن القاضي قائلا له: "...هاهي مفاتيح قلعة الجزائر، سلمها لسيدك ابن القاضي المتلهف على السلطان والمملك، وليأت إلى الجزائر وليجلس على عرشها..". (خيرالدين، 2013، ص148)

طوعا أو كرها، غادر خير الدين بربروس مدينة الجزائر ولجأ إلى جيجل في الوقت الذي نصب ابن القاضي نفسه حاكما على مدينة الجزائر، وتختلف الروايات التاريخية مرة أخرى في الفترة التي قضاها أمير كوكو حاكما على الجزائر؛ غير أن الأستاذ بوليفة Boulifa في كتابه جرجرة عبر التاريخ يقول بأنها كانت من 1520م حتى سنة 1527م. (Boulifa, 1924,p128).

كانت السنوات التي قضاها ابن القاضي حاكما على مدينة الجزائر قد أوغرت صدور الأهالي الذين ثاروا على ابن القاضي بسبب سياسته الغليظة وسوء معاملته لهم، بل وراحوا يشكون حالهم لخير الدين بربروس المقيم في جيجل، هذا الأخير الذي وجد بدوره الفرصة مناسبة للعودة إلى مدينة الجزائر، فخرج من جيجل عام 1527م رفقة اثني عشر ألف رجل قاصدا استعادة مدينة الجزائر (خيرالدين، 2013، ص149).

خرج ابن القاضي لقتال قوات خير الدين بربروس، إلا أنه مني بالهزيمة في معركة وادي بوقندورة، ثم في معركة ثنية بني عايشة حيثُ تشتت قواته (ابن القاضي) بل وتمرد عليه قسم كبير من رجاله الذين قتله واحد منهم وأرسل برأسه إلى خير الدين (خيرالدين، 2013، ص149). بعد هذا النصر، دخل خير الدين مدينة الجزائر مرة أخرى واحتفل أهلها برجوعه أبما احتفال، حيث كانت عودته إلى المدينة بمثابة تحريرها من جديد. أما ابن القاضي فكان موته كما يقول بوليفة Boulifa "نهاية رجل عظيم، واستقرارا للسلطة التركية في الجزائر بشكل نهائي" (Boulifa, 1924,p132)

رابعا: انعقاد الصلح وعودة التحالف:

تولّى حكم إمارة كوكو رجل آخر من آل القاضي اسمه الحسين وقد واصل تمردّه على خير الدين، غير أنه لم يكن بقوة سابقه، كما أن رجال زواوة قد تفرقت قوتهم بعد مقتل أميرهم السابق، ممّا اضطرّ الحسين ابن القاضي إلى وقف تمردّه البائس و عقد الصلح مع خير الدين سنة 1529م (Boulifa, 1924,p132).

و نواصل حديثنا الآن عن علاقة آل القاضي بثالث وآخر حكام الجزائر من عائلة بربروس ألا وهو الباشا حسن بن خير الدين، حيث في سنة 1559م استغل الأخير عودة علاقة التحالف بينه وبين أسرة

ابن القاضي، وقّرر التخلص بمعيتها من تمرد أسرة بني عباس التي كانت قد تمردت على السلطة العثمانية في الجزائر، فبعد عودته من محاولة لتحرير وهران قرر حسن باشا بن خير الدين شن هجوم واسع على إمارة بني عباس، وذلك بالتحالف مع إمارة كوكو الأعداء القدامى لبني عباس، واتجهت قوات هذا التحالف المكونة من تسعة آلاف محارب وأربعة آلاف فارس (Haedo, 1881,p61) إلى منطقة بني عباس، حيث وقعت معركة انتهت بهزيمة هذه الإمارة و مقتل أميرها عبد العزيز الذي حمل رأسه إلى مدينة الجزائر حسبما ذكره كاربخال (كاربخال، 1984، ص388). في حين، خلفه أخوه أحمد أمقران الذي عقد صلحا مع العثمانيين اعترف فيه بسلطتهم فيما اعترف له باشا الجزائر باستقلاله بحكم مناطقه والقبائل التابعة له (معاشي، 2015، ص129).

خامسا: علاقة المصاهرة بين عائلي بربروس وابن القاضي:

تنويعا لهذا التحالف بين السلطة العثمانية بالجزائر وإمارة كوكو، قرّر حسن بن خير الدين، حسبما ذكره Haedo إقامة علاقة مصاهرة مع عائلة ابن القاضي، حيث تزوج حسن بن خير الدين بإحدى بنات الحسين ابن القاضي سنة 1560 م، كما زوج حسن باشا فتاة أخرى من عائلة ابن القاضي لابن العلي علي صديق حسن باشا -والذي سيصبح بايلربايا للجزائر في فترة لاحقة-، وقد أرسل حسن باشا موكبا فاحرا من الفرسان لإحضار الأميرتين إلى مدينة الجزائر التي أقيمت فيها احتفالات كبيرة بهذا الزواج (Haedo, 1881,p121). وقد كان ذلك تكريسا لمبدأ الزواج السياسي الذي تبناه الحكام الأتراك مع الزعامات المحلية، تقوية لنفوذهم ودعم لا يستتباب الأمن والاستقرار في الجزائر. وقد كان حسن بن خير الدين قد حاول قبل ذلك مصاهرة أمراء بني عباس. وقد ذكر كاربخال نصا عن علاقة المصاهرة هذه جاء فيه: "...وخطب التركي ابنة صاحب الجبل (جبل بني عباس) وكانت فائقة الجمال، ولم يوافق والدها على الزواج. وإثر ذلك، تزوّج التركي ابنة صاحب كوكو..". (كاربخال، 1984، ص390).

وبما أن أسرة ابن القاضي كانت من أكبر الأسر المحلية الحاكمة في الجزائر، فقد عمل العثمانيون حتى بعد انتهاء حكم آل بربروس على الاستفادة منها والاعتماد عليها في السياسة الداخلية وحتى الخارجية، وهذا ما جاء في رسالتين بعث بهما السلطان العثماني سنة 1574م، يحث أمير كوكو على دعم القوات العثمانية من خلال معاونة أمير الأمراء في حفظ البلاد وبذل كل الجهود لدفع ضرر الأعداء والمعاندين (دفتر مهم، 981).

خاتمة:

في الأخير، نخلص إلى إمكانية دراسة التنظيمات الاجتماعية والدينية وعلاقتها بالأنظمة السياسية من منظور أنثروبولوجي، فالأنثروبولوجيا على اختلاف فروعها تعنى بشكل واضح بدراسة المجتمعات البشرية وتنظيماتها ووظائفها وكذا بعلاقتها بالسلطة السياسية على اعتبار أن البنى الأساسية للمجتمع تشترك جميعا في الشأن السياسي والأحداث التاريخية.

ومنه نستنتج أن حكام الجزائر العثمانية من عائلة بربروس عملوا منذ استقراهم بالجزائر على تقوية علاقتهم بالكيانات السياسية المحلية التي كان من أبرزها إمارة كوكو. غير أن هذه العلاقة قد سادها نوع من التوتر وصل إلى حدّ الصراع بين الطرفين خلال فترات متفرقة من القرن 16م، وذلك نظرا لاختلاف الظروف والمصالح السياسية سواء على مستوى حكومة الأتراك في الجزائر، أو على مستوى إمارة كوكو التي لم تكن ترى نفسها إلا شريكا في الحكم بالجزائر، وليس مجرد قبيلة خاضعة لحكومة الجزائر العثمانية. وعلى العموم، فقد ساهمت العلاقة بين آل بربروس وآل القاضي رغم اضطرابها في بعض الأحيان في تثبيت الوجود العثماني بالجزائر، حيث إنّ حكام الجزائر من عائلة بربروس أدركوا القيمة السياسية والعسكرية لهذه الإمارة مما جعلهم يعتمدون عليها بشكل كبير في التأسيس للحكم العثماني بالجزائر، وذلك سواء بمشاركة الإمارة المحلية في تحرير الثغور المحتلة من قبل الإسبان أو مساهمتها في القضاء على التمردات الداخلية وإخضاع أقاليمها إلى سلطة الإيالة.

قائمة المراجع:

الوثائق الأرشيفية :

-دفتري مهم 23، حكم 634 بتاريخ 981هـ

الكتب:

-الباجي المسعودي، الخلاصة النقية في أمراء أفريقية، تح، محمد زينهم محمد حرب، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2012

-إلتر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، تر محمد علي عامر، ط1، دار النهضة العربية ط ن، بيروت 1989

مجلة أنثروبولوجية الأديان (المجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15)

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

-بالانديه جورج، الأنثروبولوجيا السياسية، ترجمة علي المصري، ط2، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، 2007

-خير الدين بربروس، المذكرات، ترجمة و تعليق محمد دراج، ط2، دار الأصاله ن ت، الجزائر 2013
-دراج محمد، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512-1543، ط3، دار الأصاله، الجزائر 2015

-إبن رقية محمد بن عبد الرحمن التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى للجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، تح، خسر الدين سعدي، ط1، أوراق ثقافية للنشر والتوزيع، جيجل، 2017
-شوفالبيه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، تر جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007

-عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، د ط، الجزائر 2012
-ابن عسكر محمد الشفشاوني، دوحة الناشر محاسن من كان بالمغرب من القرن العاشر، تحقيق محمد حجي، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط 1977

-فيرو شارل، تاريخ جيجلي، ترجمة عبد الحميد سرحان، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر 2010
-كرفخال مارمول، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، ط1، دار المعارف، الرباط 1984
-مجهول، غزوات عروج وخير الدين، تصحيح و تعليق نور الدين عبد القار، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1934
-المدني أحمد توفيق حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، د ط، دار البعث، قسنطينة، د.ت
-معاشي جميلة، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من ق16م إلى ق19م، دط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2015

-الوزان حسن، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983 ج2
-البفريني محمد الصغير الفشتالي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تحقيق هوداس، مطبعة بردين، أنجي 1888

-Boulifa SA, Le Djurdjura a Travers L’histoire, Bringau Imprimeur Editeur, Alger 1925

مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 16 العدد 02 بتاريخ 2020/06/15

ISSN/2353-0197

EISSN/2676-2102

- De Grammont H.D ,Histoire d'Alger Sous La Domination Turque 1515-1830,Ernest Leroux Editeur,Paris,1887
- De Tassy Laugier, Histoire du Royaume d'Alger, S.E ,Amsterdam,1724
- Genovois, H, Legends des rois de koukou, atelier de l'école second, El-Harrache, Alger,1974
- Haedo F.D ,Histoire des Rois d'Alger, Tr, H.D De Grammont, Imprimeur Libraire Éditeur, Alger,1881
- Mercier Ernest ,Histoire de Constantine, Merale et Biron Imprimeur Editeur ,Constantine,1903
- Mercier Ernest, Histoire De L'Afrique Septentrionale, Ernest Leroux Editeur, Paris 1868

الأطروحات:

- لزغم فوزية، اليونات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها السياسي والثقافي، رسالة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2014

المقالات:

- التميمي عبد الجليل، أول رسالة من أهالي الجزائر إلى السلطان العثماني سليم الأول، المجلة التاريخية المغربية، زعوان، تونس 1976، ع6، 1972
- بن الشيخ علي، نشأة مملكة كوكو وتطورها السياسي والعسكري والإقتصادي ما بين ق16م وق18، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، ع11-12، 2016
- نقروش حميد، في أصول الظاهرة المرابطية في منطقة القبائل، مجلة آفاق فكرية، مجلد4، عدد 2، 2018
- أوراعي أحمد، الأنثروبولوجيا والتاريخ، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والإجتماعية، مجلد3، عدد1، 2012
- زلاقي وهيبه، قراءة سوسيولوجية لدور علم الاجتماع الديني والأنثروبولوجيا الإجتماعية في فهم سلوك الفرد والمجتمع، مجلة أنثروبولوجيا الأديان، مجلد16، عدد1، 2020
- Feraud,ch, Conquête de Bougie par Les Espagnols, R,A, N12,1868
- Robin,N, Notes sue l'organisation militaire et administrative des turcs dans la grande Kabylie, R,A, N17,1873